الموروث الديني في شعر ابن هانئ الأندلسي

م.منير عبيد نجم

جامعة بابل /كلية التربية الأساسية

التمهيد

نظرة في حياة الشاعر ابن هانئ الأندلسي

نشأته وثقافته : -

هو أبو القاسم محمد بن هانئ بن محمد بن سعدون الاسدي ، ولد في قرية سكون من ضواحي أشبيلية عام 320 هـ . [1] من أسرة ذات مجد وأدب وعلم يتصل نسبها بسلالة المهلب ابن أبي صفرة الاسدي القائد الإسلامي المشهور في دولة بني أمية [2] ثم انتقل مع أسرته الى البيرة (قرب غرناطة) لذلك أصبح يعرف باسم ابن هانئ الالبيري [3] كان أبوه هانئ شاعراً وأديباً نشأ في قرى المهدية عاصمة الدولة الفاطمية الأولى في المغرب ثم هاجر من قريته إلى اشبيلية في الأندلس إذ ولد ابنه محمد فأخذ يشجعه على الارتواء من مناهل المعرفة والتزود من ينابيع الشعر والإكثار من نظمه [4] نشأ ابن هانئ وترعرع في بيئة أشبيلية الحافلة بألوان الحضارة والفن والأدب واختلف الى مجاميع العلم والأدب يثقف نفسه ويهذب عقله ويكوّن ملكته تكويناً يصل بينه وبين الحياة بأسباب الطموح والأمل ثم رحل منها الى قرطبة التي كانت تزخر بالجامعات والعلماء وألوان الثقافة والحضارة يقول ابن الابار" اكثر تأدبه في دار العلم في قرطبة " [5] , فعكف على تزويد نفسه وبناء ثقافته حتى صار شاعرا كبيرا ذا قريحة وقادة ومقدرة باهرة على قول الشعر والظاهران رحيله إليها في بدء حياته كان لهذا الغرض دون سواه[6] .اتصل في أول عهده - بعد ان أصبح شاعرا لايقل عن غيره من الشعراء الممتازين - بصاحب اشبيلية ومدحه وحظي عنده بمنزلة رفيعة ، غير ان غلوه في تشيعه وبغضه للأمويين وملوكهم منكراً لحقهم في الخلافة الإسلامية وإعتقاده إمامة الفاطميين يشيد بدعواهم ويذيع محامدهم ويؤيدهم بروحه وقلبه ولسانه جعل الاشبيليين ينتقمون عليه حتى هموا بقتله لما يمثله من خطر على نظامهم السياسي والاجتماعي ولم يكتفوا بذلك بل اخذوا يسيؤون المقالة في حق الملك بسببه [7] فأشار عليه أمير اشبيلية بالخروج من المدينة لينسى خبره ، فامتثل الأمر وخرج من المدينة خائفاً يرتقب فلم يجد سوى (المهدية) موطن الدعوة الفاطمية ملاذاً آمناً يأوي إليها وكان ذلك في السنة السابعة والعشرين من عمره [8] وقد كشف الشاعر فيما بعد عن سبب ابتعاده من الأندلس وعزا ذلك الى عقيدته الشيعية فقال بازدهـاء [9] :

وما نقعوا الاقدمين تشيعِ فنجَّى هزبراً شدَّ ة المتدارك

استقر ابن هانئ في المغرب وأخذ ينتهز الفرص ليذيع شعره ويظهر شاعريته ثم دفعته همته وماضي أسرته العريق الى السير في طلب الشهرة والمجد وبدأ يتصل برجالات الدولة الفاطمية وهيأ له حسن الصدف اللقاء مع القائد جوهر عام 347 هـ الذي فتح مصر وأخضعها للمعز الفاطمي [10] وقد بالغ ابن هانئ في مدحه ونظم قصيدة ذكر فيها هذا الفتح وأثره مجوهراً بطولته وحزمه ومجده الحربي وولائه للخليفة المعز وللمذهب الفاطمي يقول فيها [11] :-

وابيض من سرّ الخلافة واضحٍ تجلى فكان الثمن في رونق الضحى
أريك به منهج الخلافةِ مهيعـــاً يبين واعلام الخلافـــــة وُضَّـحا

فقربه وأكرمه وأمر له بهدية .

ولعل عطايا جوهر لم تكن تناسب آمال الشاعر وطموحاته وعزمه على الظهور فقد كان يسمع بعطايا الأمراء وجوائزهم الطائلة التي تقلب حياة الشعراء رأساً على عقب وتدعهم يعيشون حياة الترف والنعيم ففكر في عظيم آخر يعيش في ظلاله ويستقر في رعايته [12] .

فرحل إلى الزاب واتصل بجعفر بن علي الفاطمي وأخيه يحيى سنة 349 هـ [13] .

لما سمع بجوده وأريحيته وتقريبه العلماء والشعراء فمدحه بقصيدة طويلة وصف فيها بطولاته وجهاده وآثاره السامية ومما قال فيها [14] :

خلقت شهاباً يضيئ الخطوب ولست شهاباً يضيئ الظلم
وأنكَّ من معشـــــــرِ طفله يتوَّ جُ قبل بلوغِ الحلـُــــم

ثم يذكر فيها عسف الزمان به وتحالف الخطوب عليه مصوراً عفافه وهمته اللذين كانا سبب محنته يقول [15]

ادم اليك اعتواء الخطوب وصدف الحوادث فيما أدم
ومما اعان عليَّ الزمــان عفاف يدي وعلو الهـــمم

تلقى الأمير ابن هانئ الأندلسي بالتقدير والعطف ودعاه الى الإقامة في كنفه ، فبدأ ابن هانئ حياة جديدة ملؤها الأمل والرخاء في ظلال جعفر وأخيه يحيى يقول في جعفر [16] :

قد كنت قبل نداك أزجي عارضاً فأشيم منه الزبرج المنجايا

وفي موضع آخر يتحدث عن نفسه وصنيع يحيى الفاطمي معه[17] :

وما زلت ترميني الليالي بنبلـها وارمي الليالي بالتجلد والصبر

وانجدني يحيى على كل حـتادث وتوجني تاجاً من العز والفخر

عاش ابن هانئ في الزاب نحو عامين لم يكن همه فيها الا حضور مجلس الامير والاتصال برجالات الدولة والتمتع بنعيم الحياة وجمالها حتى صارت الزاب عنده جنة النعيم [18] :

أنما الزاب جنة لخليفها من نجاة نضارة التفويف

واشتهرت قصائد ابن هانئ الأندلسي في مدح جعفر وأسرته وتحدث بها الناس ورواها الأدباء والرواة وبلغ خبر الشاعر للخليفة المعز لدين الله الفاطمي فأرسل الى جعفر طالباً منه ابن هانئ وامتثل جعفر للأمر [19] وفي عام 350 هـ وصل ابن هانئ القيروان عاصمة الخلافة الفاطمية فسعى الى الخليفة المعز ومثل بين يديه وأنشده شعره وأصبح ابن هانئ في الحقبـــــة (350 – 362) هـ شاعر الخليفة[20] فقد نظم في مدحه أكثر من ثلاثين قصيدة من أطول قصائده الفنية واروعها والتي تبلغ نصف تراثه الادبي وتسمى (المعزيات) على غرار ما عرف الكميت بالهاشميات وابي فراس الحمداني بالروميات[21] .لقد كان المعز الفاطمي على جانب عظيم من التفهم وبعد النظرة وكان من المثقفين ثقافة عالية وشاعراً رقيقاً واذا اضفت الى ذلك ما تحلى به من السجايا وخصال الزعامة ومنزلة روحية عند المذهب الاسماعيلي ادركنا سبب اعجاب ابن هانئ به ومديحه له حتى صار شاعر الدولة الأول الذي اوقف نفسه وفنه على الذياد عنها والإشادة بمجدها وشاعر العقيدة الفاطمية الذي تحدث عن مبادئها الروحية ومعتقداتها الدينية واحتل في دولة المعز الفاطمي مكاناً لم يحتله سواه من الشعراء وأصبح حديث الناس في محافلهم كما صار شعره أنشودة في كل فم وقد أغدق عليه المعز المال إغداقاً واتخذ له قصيراً بالقيروان وعاش حياة النعيم والرخاء[22] .وفي أواخر شوال سنة 361 هـ انتقل المعز لدين الله إلى القاهرة فخرج ابن هانئ مشايعاً له ، ثم عاد وجاء بأهله وسار يريد القاهرة ولما كان في (برقة) وجد مقتولاً 362 هـ ولم يتفق المؤخرون على سبب قتله وذهبوا في ذلك مذاهب شتى ولكن بعضهم يرى ان لبني أمية يداً في مقتله لأنه كان يقذعهم في هجائه ، وكيف كان الأمر فأنه مات ولم يتجاوز السادسة والثلاثين[23] من عمره .

ولما بلغ المعز وهو في مصر خبر مقتله تأسف عليه كثيراً وقال لا حول ولا قوة الا بالله هذا الرجل من نرجو ان نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدَّر لنا ذلك [24]

(خصائص شعره)

يدل شعر ابن هانئ الأندلسي على انه كان ملماً بعلوم عدة كعلم اللغة والفقه والكلام ولكن تخصصه كان في الادب وهو شاعر مكثر مجيد جعله معظم النقاد في مقدمة شعراء المغرب يقول ابن خلكان (ليس في المغاربة من هو في طبقته لا من متقدميهم ولا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق) [25]

والمغاربة يقرنونه بالمتنبي ويسموه بمتنبي المغرب أو متنبي الغرب وهو ما ذكره ياقوت الحموي في معجمه قائلاً (ابن هانئ الأندلسي أديب شاعر مفلق اشعر المتقدمين والمتأخرين من المغاربة وهو عندهم كالمتنبي عند أهل الشرق)[26] .

ونستطيع أن نقف على أبرز مميزات شعره

1- كان ابن هانئ يعنى باللفظ أكثر من عنايته بالمعنى فيعتمد الألفاظ الجزلة والفخمة ذات القعقعة ، وهذا ما جعل أبا العلاء المعري يقول حين سمع شعره " ما أشبهه الا برحى تطحن قروناً " [27] لأجل القعقعة في ألفاظه . أما معانيه فكانت سهلة واضحة المنال بعيدة عن الغموض والتعقيد .

2- ينزع في معظم شعره الى روح البداوة التي تأثر بها في ما قرأ من شعر الجاهليين والإسلاميين فهو لا يمثل ترف المحدثين ولهوهم وخيالهم الفني وإنما ينهج منهج الجاهليين في قوة الطبع وفخامة الأسلوب وإشراق الديباجة .

3- غلب على شعره الحجاج والجدل والتعليل المنطقي بما عرف عنه من قوة واندفاع إذ كان يعتنق المذهب الاسماعيلي ويحمل آراءه وأفكاره حتى كثر في شعره ذكر المآثر والمناقب الفاطمية .

هوامش التمهيد

1- ينظر وفيات الاعيان لابن خلكان : 3 / 5 ، ينظر نفح الطيب للمقري : 2 / 264 ، ينظر موسوعة شعراء الاندلس عبد الحكيم الوائلي : 333 ، ينظر شعراء العصر الاندلسي محمد العريس : 401
2- ينظر تاريخ الادب العربي د . عمر فروخ : 4 / 266
3- ينظر المغرب في حلى المغرب لأبن سعيد المغربي : 2 / 97
4- ينظر موسوعة شعراء العصر الاندلسي محمد العريس 401
5- الديوان : 5
6- ينظر الادب الاندلسي التطور والتجديد د . محمد عبد المنعم الخفاجي : 401
7- ينظر ملامح الشعر الاندلسي د . عمر الدقاق : 80
8- ينظر الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة د . أحمد هيكل : 233
9- ينظر ملامح الشعر الاندلسي د . عمر الدقاق : 82
10- ينظر الادب الاندلسي التطور والتجديد د. محمد عبد المنعم الخفاجي : 429
11- الديوان : 76
12- ينظر الادب الاندلسي التطور والتجديد د. محمد عبد المنعم الخفاجي : 429
13- ينظر تاريخ الادب العربي – عصر الدول والامارات / مصر د. شوقي ضيف : 243
14- الديوان : 329
15- المصدر نفسه : 335
16- المصدر نفسه : 72
17- المصدر نفسه : 82
18- المصدر نفسه : 92
19- ينظر الادب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة د. أحمد هيكل : 234
20- ينظر إبن هانئ الاندلسي عارف تامر : 27
21- ينظر المصدر نفسه : 28
22- ينظر ملامح الشعر الاندلسي د. عمر الدقاق : 86
23- ينظر الديوان : 6
24- ينظر تاريخ الادب العربي د. عمر فروخ : 4/ 267
25- ينظر وفيات الاعيان لابن خلكان : 3/5
26- معجم الادباء ياقوت الحموي : 19/93
27- الديوان : 7

المبحث الأول /أثر القرآن الكريم في شعر ابن هانئ الأندلسي

توطئة :: القرآن الكريم كلام الله الذي ترفــّع وتجلى عن كلام البشر فهو " إن أوجز كان كافياً وإن أكثر كان مذكراً وأن أومئ كان مقنعاً " [1] إذ حوت لغته كل صفات الجمال والتأثير وطغى أشعاعه النفسي والعقلي والفني على كل أساليب التعبير[2] فأضحت الفاظه ناطقة وموحية . وكان ابن هانئ أحد الشعراء الأندلسيين الذين استلهموا من نبع القرآن الكريم إذ تنفس شعره بالعطر الإلهي وانطبعت آثاره وبصماته على معظم أغراضه الشعرية ، فبات الشاعر يتنقل بين رياض القرآن الكريم الرحبة متأثراً بنماذجه الفنية – لغةً وتركيباً وذوقاً – ولعل الثقافة الدينية الواسعة التي ألم بها ابن هانئ الأندلسي في شبابه حين درس القرآن الكريم وعلومه وأجاد في حفظه مما نفعه في مستقبله الأدبي[3] إذ صبغ أسلوبه بصبغة القرآن الكريم اللغوية حتى كان فيما يعدالمجيد في الاقتباس من الذكر الحكيم .لقد استلهم ابن هانئ الأندلسي النص القرآني وعمل على توظيفه في داخل المتن الشعري بما يتناسب وموضوع قصيدته ، فقد جاء استلهامه للنص القرآني على مستويات ثلاث :

أولاً : المستوى الأول

المحافظة على الشكل البنائي (دلالةً وتعبيراً) للنص القرآني فكان نقلاً حرفياً إذ لازمت البنية القرآنية الداخلة في النص الشعري على دلالتها دون أيّما تغيير كقوله[4]

فلا تسألاني عن زماني الذي خلا فوالعصر اني قبل يحيى لفي خسر
فيا ابن علي اما مدحتكَ جاهــلاً فأنــك لم تعدل بشفـــــعٍ ولا وترِ

وهي صورة استلهمت معطياتها من قوله تعالى[5] {والعصر إن الإنسـان لفي خسرٍ }

وقوله تعالى[6] { والفجرِ # وليالٍ عشرٍ# والشفعِ والوترِ } وليس ثمة مبرر لهذا الغلو في تقديس الممدوح إلا المنفعة في القربى منه وانتهاز المواقف ، فلا بد ان يتميز الشاعر في اداته وابتكاره في صيغته ليتقدم على غيره من الشعراء مستثمراً معطيات الآيتين الكريمتين للوصول الى مبتغاه .

وقوله لأمير الزاب[7]

لعمري لقد أُيدتَ يوم الوغى به كـــما أُيدت كفاكَ بالانمـلِ العشرِ
كذلك ناجـى الله موسى نبيــه فنادى أن شرح ما يضيقُ به صدري

وهي صورة مستقاة من قوله تعالى[8]{قالَ ربِّ أشرح لي صدري #ويسر لي أمري# وأحلل عقدةً من لساني # يفقهوا قولي # وأجعل لي وزيراً من أهلي # هارون أخي # أشدُد به أزري }

فكانت هذه الصورة بمثابة الخلفية لتلك الصورة ، وكما أن موسى (ع) ناجى ربه أن يجعل أخاه هارون وزيراً يعاضده ويناصره في دعواه كذلك اتخذ أمير الزاب من جوهر الفاطمي سنداً له يكفيه اعداءه في ساحة القتال .

وقوله[9]

ولك الجــواري المنشآتُ مواخراً تجري بأمركَ والرياحُ رخــاءُ
والحـــــاملاتِ وكـــلها محمولةٌ والنـاتـجاتُ وكلـــها عذراءُ
والاعــوجيات التي إن سُوبقت سبقتَ وجريُ المذكياتِ غلاءُ
الطائرات السابحـــــات السّابقا ت الناجيات إذا أستُحثَ نجــاءُ
أعززتَ دين الله يــابنَ نبيّــهِ فـــــاليومَ فيهِ تخمُّطٌ وإبــاءُ
فعنت لك الابصار وانقادت لك الاقدارُ وأستحبت لك الانــواءُ
يفديكَ شهرُ صِيامنا وقِـــيامنا ثم الشُّهـــــورُ لهُ بذاك فــداءُ
فيهِ تنزّلَ كلُّ وحـــيٍّ مـُنزلٍ فلأهلِ بيت الوحي فيهِ ثنـــاءُ

إن قراءة سريعةً لهذه الأبيات توضح لنا كثرة اعتماد ابن هانئ الأندلسي للأخذ من القرآن الكريم والاقتباس من آياته وصوره بصورة مباشرة فقوله (ولك الجواري المنشآت الى قوله الطائرات السابحات) تعطي انطباعا أكيداً على الاعتماد على ماجاء في الذكر الحكيم من سورة الرحمن[10] {ولهُ الجوارِ المنشأتُ في البحرِ كالاعلامِ } وقوله تعالى[11] {فالسابقاتِ سبقاً } ليؤلف منها صورة شعرية تزخر بجو إيماني التأثير . وفي صورة أخرى يتأثر ابن هانئ بما كان يشعر به النبي داود (ع) من الذنب والرغبة الصادقة في طلب التوبة والمغفرة موظفاً قوله تعالى[12] { وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب # إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فأحكم بيننا بالحقِّ ولا تشطط وإهدنا سواء الصرِّاط# إن هذا أخي لهُ تسعٌ وتسعونَ نعجةً ولي نعجةٌ واحدةٌ فقالَ إكفلنيها وعزني في الخطاب# قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وأن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ما هم وظن داود إنما فتناه فأستغفرَ ربَّه وخرَّ راكعاً واناب # فغفرنا له ذلك وأنَّ له عندنا لزلفى وحسن مآب} ويجعل من هذه السورة القرآنية معادلاً موضوعياً لموقفه أمام جعفر بن علي فبعد أن يصفه بالكرم والشجاعة والمقدرة على تسيير الأمور مما جعل الإمام الفاطمي يسد به الثغور مثلما استعان النبي (صلى الله عليه واله) بالأنصار ليهزم الأحزاب المجتمعة في معركة الخندق والأنصار يمانيون والممدوح من ملوكهم ، وان الشاعر قد أذنب – دون قصد – في إرجاع نسبه الى غيرهم ، مثله مثل داود عليه السلام في هذا الموقف ، ولائموه مثل الخصمين الذين تسورا المحراب عليه وها هو تائب أسوة بتوبة داود (ع) قال[13] :

سَدَّ الأمام بكَ الثغــورَ وقبلــهُ هزمَ النبيُّ بقومكَ الاحــزابـــا
أنتم ذَوو التيجانِ من يمــنٍ اذا عُدَّ الشريفُ أرومةً ونصـــــابا
هبني كذي المحراب فيك ولوّمي كالخصمِ حينَ تسوّروا المحرابا
فأنا المنيبُ وفيه أعـــــظمَ أسوةٍ قد خـرَّ قــبلي راكـــعاً وأنابا

ولقصة نبي الله سليمان بن داود (ع) وافتتانه بعرض الخيول الضامرة السريعة حتى غربت الشمس وغفل عن الصلاة في قوله تعالى[14] { ووهبنا لداود سليمانَ نعمَ العبدُ إنه أواب # إذ عُرض عليه بالعشيِّ الصافناتُ الجيادُ # فقال إني أحببتُ حبَّ الخيرِ عن ذكرِ ربي حتى توارت بالحجابِ # ردُّوها عليَّ فطفقَ مسحاً بالسَّوقِ والاعناقِ } استحضارٌ في مدح الشاعر للمعز الفاطمي فيذكر ركوبه في بعض الأعياد إذ يصف الخيل ذات الحوافر المخضبة بالدم الأحمر مما وطئته في جماجم الأعداء المفلقة بأنها تمزق في جريها - لتحقيق النصر – أسهماً على الخارجين على الدين والممدوح قد اختارهن لحب سليمان (ع) للضمر الأصيلات

منهن ولكنه لو رأى ما رأى الممدوح منهن في هذه الواقعة حين تتوارى الشمس خلف حجاب الظلام لم يقل ردُّوها عليَّ ولا يضرب سوقها وأعناقها إذ يقول [15] :

وتـــراها حُمر السنابكِ ممـــا ... وطئت في الجــماجمِ الافلاقِ
اللّواتي مرقنَ من اضلُعِ النص ... رِ أسهـــُماً على المـــــُرّاقِ
أنت أصطفيتهنَّ حُـــبَ سليما ... ن قديماً للصافناتِ العـــتاقِ
لــو رأى ما رأيتَ منّها الى أن ... تتوارى شمسٌ بسجفِ الغساقِ
لم يقـــل ردُّوها عليَّ ولا يط ... فقُ مسحاً بالسُّوقِ والاعنـــاقِ

فاستلهمت هذه الصورة معطياتها من تلك الآية القرآنية .

وهكذا نجد أن الشاعر قد أستطاع عبر هذا المستوى من نقل جوهر الحدث القرآني في الصورة القرآنية بجزئياته الى ساحته الشعرية فنتج عن ذلك علاقة تربط السورة القرآنية بما يريد الشاعر التعبير عن دون أن يتدخل في هذا النقل سوى الربط بينهما ببعض الروابط اللغوية .

ثانياً : المستوى الثاني :عمد فيه ابن هانئ الأندلسي الى تكنيك آخر عبر اتكاء النص الشعري على النص القرآني من غير المحافظة على البنية التعبيرية القرآنية فيتواصل النصان ويذوب أحدهما بالآخر دون ان تختفي المعالم الدلالية للنص القرآني ، ويتطلب ذلك القيام بعملية تحويرية للنص والخطاب القرآني وعلى المستويات كافة (لفظاً ودلالةً، حذفاً وتوليداً ، تكثيفاً وتوسيعاً) يظهر ذلك جلياً في قولهِ [16]

وما الناس الا ظاعنٌ ومـــودعٌ ... وثاوٍ قريح الجفنِ يبكي لراحلِ
نساقُ من الدنيا الى غيرِ دائمٍ ... ونبكي من الدنيا على غيرِ طائلِ
فما عاجلٌ نرجوهُ الا كـــآجلٍ ... ولا آجلٌ نخشاهُ الا كعاجـــلِ

أن فلسفة الحياة والموت تبدو ظاهرة جلية للجميع ولكن صيغتها في هذه الأبيات تمتلك القوة والقدرة على زرع الزهد في الحياة ونبذ البقاء ، فالدنيا غير دائمة على حال والبكاء عليها أصبح من غير فائدة والعاجل كالآجل والذي نخشاه ونحذره لا بد أن يقع مستقبياً ذلك كله من قوله تعالى[17] { ما أصابَ من مصيبةٍ في الارضِ ولا في انفسكم إلا في كتابٍ من قبل أن نبرأها إن ذلك على اللهِ يسيرٌ# لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحبُ كلَّ مغتالٍ فخورٍ} ونراه في موضع آخر قد عمد الى نقل أحاسيس ومشاعر أهل الفقيد من التفكير بمصابهم الأليم الى التفكير في فلسفة الحياة مما يولد في نفوسهم شيئاً من العزاء يساعدهم في تجاوز ما ألمَّ بهم ، والظاهر أن هذه التأملات كان منشؤها ثقافة ابن هانئ الأندلسي وتأثره بمذهب الفلاسفة في الاستدلال العقلي حتى بات هادئاً رزيناً أمام المصيبة يقول [18]

الا كلُّ آتٍ قـــريبُ المدى ... وكـــلُّ حـــياةٍ إلى مُـــنتهى
وما غرَّ نفساً سوى نفسِها ... وعُمرُ الفتى من أمـاني الفتى
فأقصرُ في العينِ من لفتةٍ ... وأسرعُ في السمعِ من ذا ولا

فهذه الأبيات تبدو وكأنها ترديد لقوله تعالى [19]{إن ما توعدونَ لأتٍ وما أنتم بمعجزين}
وقوله تعالى [20] {كلَّ من عليها فانٍ # ويبقى وجه ربكَ ذو الجلالِ والإكرامِ}

إذ يتحدان في المعنى ويختلفان في الصياغة .وفي هذا المستوى تبدو براعة الشاعر و ومقدرته في استجداء كوامن المتلقي بحضوره الذهني في عملية رصد ظواهر الصورة الشعرية وتحليل معالمها وكشف مرجعياتها ذلك حين تختفي صورة قرآنية وراء صورة شعرية جسد ابن هانئ بها موقفاً من المواقف الحياتية أو فكرة أراد تثبيتها والتعبير عنها فتساهم مخيلة المتلقي في الكشف والربط بين الصورة الشعرية والصورة القرآنية باحثاً عن المورد الذي استقى منه الشاعر صورته فهو يعمد الى المزج بين آيتين أو أكثر للوصول الى اقصى حد ممكن في شد التوتر الدلالي لدى القارئ يظهر ذلك جلياً في قوله [21]

أُنظُر إليه وفي التحريك تسكينُ ... كـــأنما التـقمت عنه الـــتنانينُ
تبـــارك الله ما امضى أسنَّـــتهُ ... كـــأنما كلُّ فكٍ منهُ طاحـــونُ
كـــأن بيتَ سلاحٍ فيه مختزنٌ ... مما أعدّتهُ للـــــرُّسلِ الفراعينُ
كأنما الحملُ المشويُّ في يـــدهِ ... ذو النون في الماءِ لما عضَهُ النونُ
فـــليسَ ترويه أمواهُ الفراتِ ولا ... يقوتهُ فُلكَ نوحٍ وهو مشـــــحونُ إذ عمد الى

مجموعةٍ من القصص القرآنية ((قصة يونس (ع) وقصة نوح (ع))) موظفاً اياها في هجائه لأكول ، مصوراً حركة فمه في الفتح والإطباق بالتقام التنانين للطعام مشبهاً أسنانه بالطواحين وجوفه ببيت السلاح الذي اعدته الفراعنة للرسل وابتلاعه للطعام كابتلاع الحوت ليونس (ع) وهو في شرهه هذا لن ترويه مياه الفرات ولن

تقوته سفينة نوح (ع) وهي مشحونة بالطعام .وفي موضع آخر يدعو للتأمل في الموت مؤكداً على ان الهدى ينبع من القلب وبه يكون التبصر والتدبر دون العين إذ يقول [22]

ولـــــم أرَ كالمرء اللبيب يرى ملء عينيه ما لا يرى
وليس النواظرُ إلا القلوب وأما العيونُ ففيها العـــمى

ومن ذلك قوله أيضاً [23]

إنا وفي آمالِ انفُسنـــــا طولٌ وفي أعمارنا قتــصرُ
لنرى بأعُيننا مصارعنا لوكـــانت ألألـــبابُ تعتبرُ
مما دهانا إن حاضرنـــا اجفاننا والغائب الفـــــكرُ
لو كان للألباب ممتحـنٌ ما عُدَّ منها السمعُ والبصرُ
أيُّ الحـــياةِ ألذُّ عيشتها من بعدِ علمي إنني بـــشرُ
خرست لعمر الله ألسُنُنا لـــما تكلم فوقها القـــدرُ

إذ عمد الى تصوير الطبيعة البشرية وما ستؤول اليه بعد حين من الزمن ، فمن الأمنيات العظام التي يمني المرؤ فيها نفسه الى الموت الحتمي الذي يقف حائلاً بينه وبين ما تصنعه مخيلته من آمال وطموحات معللاً ذلك بالعمى الذي أصاب الفكر دون البصر مستسقياً صورته الشعرية من قوله تعالى [24] { أنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور} وقوله تعالى [25] { لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يُبصرون بها ولهم أذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالإنعامِ بل هم أضلُّ أولئك هم الغافلون }وقد يعمد الى خلق جسور دلالية جديدة استناداً الى حدث او قصة قرآنية قاصداً الغاية النفعية التي تقربه من الممدوح فيسرد لنا سرداً وصفيا عن آباء الممدوحين كيف حموا مكة وشعابها ووهادها ورباها من جيش أبرهة الذي أخذ يطوي الليل بالنهار ليصل إليها فشاغلوا عنه الفيل بالطعن المزدوج ، ومنعوه من الوصول إليها قال[26]

حاصـــروا مكّة في صبـــابةٍ عقدوا خـيرَ حُبىً في خيرِ نادِ
فـــتلهم ما إنجابَ عنهُ فجرها من قليبٍ أو مصادٍ أو مـــرادِ
أو شعابٍ ، أو هضابٍ أو ربىً او بطاحٍ أو نجادٍ أو وهـــــادِ
في حـــــريم الله إذ يحـمونـــه بالعوالِ السُّمرِ والبيض الحـدادِ
ضـــاربوا إبـــــرهةً من دونهِ بعدما لفَّ بياضها بســـــوادِ
شغلوا الفيلَ عليهِ في الوغـــى بثُوامِ الطعنِ في الخطوِ الفرادِ

فاستلهمت هذه الصورة معطياتها من سورة الفيل ليجعلها خلفيةً لصورتهِ الشعرية مع إيجاد شكل من التمازج بينهما عبر أسلوب التحاور داخل المشهد الشعري .

ثالثاً : المستوى الثالث:: وتتجلى فيه مقدرة ابن هانئ الأندلسي وعمق ثقافته الدينية وعظيم استلهامه لألفاظ القرآن الكريم ومعانيه حتى جعل من قصائده قرآناً خاصاً به يرتل آياته ترتيلاً وإن ما من أحد يحسن قول الشعر كما يحسنه يقول [27]

حتى رأيتُ قصائدي منحولةً والقولَ في أمِّ الكتابِ مقـولا
ولأن بقيتُ لأُخلينَّ لـعزّها ميدانَ سبقي مُقصراً ومُطيلا
حتى كأني ملهمُ وكـــأنها سورٌ أُرتِّلُ آيَها ترتيـــــلا

فقد استطاع بما رزق من موهبة وملكة أدبية من الاتكاء على اسلوب بلاغي آخر معتمدا على تكنيك (الإشارة والتلميع) مؤكدا قوة الآصرة التي تشده الى تراثه الديني وإبداعه الروحي يقول [28]

أرى مدحهُ كالمدحِ لله أنهُ قنوت وتسبيح يحطُ به الوزرُ

إشارة منه الى قوله تعالى[29] { فسبح بحمدِ ربك وأستغفرهُ إنهُ كانَ غفارا }

وأيضا قوله [30] واصفا المعز الفاطمي

كأنما في كفه للورى مفاتح الآجالِ والأرزاقِ

فقد جعل من المعز الفاطمي سيد الخلق بيده الآجال والارزاق إشارة الى قوله تعالى [31]

{ وعندهُ مفاتحُ الغيبِ لا يعلمها إلا هو }

وقوله أيضا [32]

فتربصوا تاللهِ منجزَ وعده قد آنَ للظلماءِ أن تتكشفا

مستقياً صورته من قوله تعالى[33] { ويستعجلونكَ بالعذابِ ولن يخلف اللهُ وعده }

وقوله [34]

وما خلقت عبثاً أُمةٌ ولا ترك اللهُ قوماً سدى

ففيه إشارة الى قوله تعالى [35]{ أيحسب الإنسانُ أن يترك سدًى }

وفي موضع آخر يوظف قصة بني إسرائيل وعذابهم مع فرعون وقارون بكل طغيانهم وجبروتهم ويقلب المعنى – عبر أسلوب التلميع – من ذم في القرآن الكريم الى مدح جوهر الفاطمي قائد المعز في قوله [36]

ولما تغشت جانب الأرض فتنةٌ تشُبُّ لضى الهيجاء الفتَحَ الفحا

رمى بك قارون المغاربِ عاتياً وفرعونها مستحيياً ومذبِّـــحا

ونستطيع أن نلحظ مدى الثقافة الدينية التي تمتع بها ابن هانئ الأندلسي وكيف استطاع أن يوظف قصة يأجوج ومأجوج - عبر أسلوب التلميع - وكيف أن مخلص القوم استعان بالحديد المذاب ليبني لهم سدا ، لكن المعز الفاطمي استبدل الحديد بالذهب في قوله [37]

يريقُ عليها اللؤلؤ الرَّطبُ ماءهُ ويسبكُ فيها ذائب التِّبرِ سابكُ

وقوله أيضا [38]

نزلت ملائكةُ السماءِ بنصرهِ وأطاعه الإصباحُ والإمساءُ

مشيرا إلى ما ورد في القرآن الكريم من نصر الله للمسلمين في معركة الخندق وكيف أمدهم بجنود من الملائكة في قوله تعالى [39] { و أنزلَ جنوداً لم تروها }

كذلك الحال مع المعز الذي نصره الله وأمده بما يعينه في نصره

هوامش المبحث الاول

1- زهرة الآداب وثمر الألباب للقيروان : 1/140
2- ينظر أثر القرآن الكريم في الشعر الاندلسي هادي طالب (رسالة ماجستير) : 9
3- ينظر الادب الاندلسي للتطور والتجديد د. محمد عبد المنعم الخفاجي : 423
4- الديوان : 155
5- سورة العصر آية 1
6- سورة الفجر آية 1-3
7- الديوان : 56
8- سورة طه آية 25 – 31
9- الديوان : 15 – 17
10- سورة الرحمن آية 24
11- سورة النازعات آية 4
12- سورة ص آية 21 – 25
13- الديوان : 52
14- سورة ص آية 30 – 33
15- الديوان : 233
16- المصدر نفسه : 303
17- سورة الحديد آية 22- 23
18- الديوان : 27
19- سورة الأنعام آية 134
20- سورة الرحمن آية 26 – 27
21- الديوان : 376
22- المصدر نفسه : 35
23- المصدر نفسه : 166
24- سورة الحج آية 46
25- سورة الاعراف آية 179
26- الديوان : 156
27- المصدر نفسه : 96
28- المصدر نفسه : 78
29- سورة النصر آية 3
30- الديوان : 330
31- سورة الانعام آية 59
32- الديوان : 204
33- سورة الحج آية 47
34- الديوان : 25

35- سورة القيامة آية 36
36- الديوان :77
37- المصدر نفسه : 81
38- المصدر نفسه : 15
39- سورة التوبة آية 26

المبحث الثاني أثر العقيدة الإسماعيلية في شعر ابن هانئ الأندلسي

توطئة

كان ا بن هانئ الأندلسي شاعرا مذهبيا لا يؤمن بالفن فقط وإنما يستخدمه في تدعيم مذهبه العقائدي فقد اتصل بزعماء الدولة الفاطمية بعد هجرته من الأندلس وعمل للدعوة الإسماعيلية التي ورثها من أبيه فكان لسانها الناطق وداعيها ذا الصوت الجهير حتى صار شعره لسان الدعوة الإسماعيلية الناطق يردده في محافلهم ومجالسهم ، واهتموا به وسجلوه دون غيره من الشعراء كونه يحمل كثيرا من عقائد الفاطميين وأفكارهم وتقديسهم للخلافة والخليفة [1] .ومن هنا كثرت في شعره مصطلحات الاسماعيليين وآرائهم وبدت في نتاجه خطوط مذهبهم وروح دعوتهم واشتمل أسلوبه على كثير من مواطن الحجاج والتعليل ومحاولة الإقناع المنطقي ، وربما لا تخلو قصيدة من قصائده من عشرات الأمثلة على ذلك [2] .ويؤمن الشيعة الفاطميون الاسماعيليون بمجموعة من المبادئ التي كان صداها حاضرا في شعر ابن هانئ الأندلسي حتى غدا ديوانه يمثل صورة واقعية لتعاليم الإسماعيلية الفلسفية إذ كانت العقيدة الإسماعيلية متأصلة في روحه كونه نهل أصولها وأساسها من والده الذي كان أحد دعاة المذهب الاسماعيلي حتى عدّ شعره الإطار الروحي للدعوة الإسماعيلية [3] الذي تحرك فيه ابن هانئ تحركا ارتقائيا ، وأن تعاليم هذا المذهب لتبدو جلية في شعره ومن أبرز هذه المبادئ هي :

أولاً : مبدأ الإمامة :يعد هذا المبدأ من أهم تعاليم الدعوة الإسماعيلية وأخطرها والإمام في نظرهم هو "علة المخلوقات وحياة الكل وبه ترتب الخلق والدين وهو موجود غير مفقود لا يدركه زمان ولا يدخل تحت حوادث الأيام " [4] وبناءً على هذه الفكرة فهم يرون أن إمامة الفاطميين ربانية وطاعتهم فريضة مكتوبة على كل مسلم إذ يتمتعون بفضائل فطرية تجعلهم مبرئين من الذنوب مطهرين من الآثام ولا يقعون في أيّة خطيئة مهما كانت صغيرة لما ينتقل في أصلابهم – حسب اعتقادهم – من نور الهي – ينقي أرواحهم ويخليها من دواعي الشر [5] يظهر ذلك جلياً في مدح المعز الفاطمي [6]

معزُّ الهدى والدين والرحمِ التي ... صنائعه في آلهِ وزكـــــى الذُّخـــرُ
فقد صارت الدنيا إليكم مصيرها ... وصار له الحمد المضاعف والشــكرُ
إمامٌ رأيتُ الدينَ مرتبطــاً به ... فطاعتهُ فوزٌ وعصيانهُ خُســـــرُ
أرى مدحَهُ كالمـــــدحِ لله إنه ... قُنوتٌ وتسبيحٌ تُحَطُ بهِ الـــــوزرُ
هو وارث الدُّ نيا ومن خلقت لهُ ... ومن الناس حتى يلتقي القطرُ القطـــرُ

فالإمام صنو الإيمان بل يكاد يكون الإيمان نفسه فإذا ما كان الإنسان مطيعا للإمام فهو فائز لا محاله لذلك كان من الواجب على ابن هانئ – حسب مذهبه – أن يجعل طاعة الإمام كطاعة الله ومن ذلك قوله أيضاً[7]

فكونوا حصيداً خامدين أو ارعووا ... الى ملكٍ في كفِّهِ الموتُ والنشرُ
أطـــــيعوا إماماً للأئمة فاضلاً ... كما كانت الأعمالُ يفضلها البــرُّ
فان تتبعوه فهو مولاكمُ الـــــذي ... لهُ برسول الله دونكمُ الفخـــــرُ

وفي موضع آخر نجده يحاول التماس العذر لنفسه في وصفه للمعز الفاطمي كونه يمت بصلة الى آل البيت (ع) وينتهي نسبه الى الزهراء عليها السلام [8]

أبناء فاطم هل لنا في حشرنـــا ... لجأُ سواكم عاصمٌ ومجـــارُ
أنتم أحـــــــباء الإله وآلــه ... خلفاؤ هُ في أرضهِ الابـرارُ
أهل النبوَّةِ والرسالةِ والهــُدى ... في البينات ِ وسادةٌ اطـــهارُ
والوحـــي والتأويل والتحـــريم ِ ... والتّحليلِ لا خلقٌ اليهِ يُشـارُ
لو تلمسونَ الصخر لأنبجست به ... وتفجَّرت وتدفقت أنهـــــارُ

فهو شاعر لم يعرف الى الاعتدال طريقاً ولم تحده حدود مما جعله يكيل صفات الذات الإلهية حتى يصل بممدوحه الى مرحلة الإلوهية مخرجاً إياه عن صفات البشر ليصل درجة قريبة من أصحاب الخوارق لأن الإمام يتسم عند الاسماعيليين بالعصمة ومن هنا كان غلوه منسجماً مع معتقده ، يظهر ذلك في قوله [9]

لّكلِ بني أحمد فضلـــهُ ولكـــنك الواحد المجتبى
ليعرفك من أنتَ منجاتُهُ إذا ما أتقى الله حقَ التُّقى

وقوله أيضاً [10]

تسعى بنور الله بين عـــــبادهِ لتُضئَ برهـــاناً لهم تلوحـــا
وجدَ العيانُ سناكَ تحقيقاً ولم تُحطِ الظنون بكنههِ تصريحا

ولم يكتف الشاعر ما أورد وقدم من صفات في حق الخليفة الفاطمي الذي يمثل عنده رتبة الإمامة بل وصل به الأمر الى أن يجعله صاحب الشفاعة رافعاً أياه الى مرتبة الرسول (ص) حين يقول [11]

هذا الشفيعُ لأمةٍ يأتي بـــها وجـــدُودُه لجدها شفعـــــاءُ
هذا أمينُ اللهِ بين عبـــــاده وبلاده إن عُدَّت ألأمنـــــاءُ
فعليهِ من سيما النبي دلالـــةٌ وعليهِ من نورِ الاله بهـــاءُ
للناسِ اجتماعٌ على تفضيله حتى استوى اللؤماءُ والكُرماءُ

ثانياً : مبدأ المثل والممثول :ويقوم هذا المبدأ -عند الاسماعيليين- على حقيقة مفادها إن للقرآن ظاهراً ووراء ظاهره باطن لا يعلمه الا أئمتهم خصّوا به دون غيرهم من البشر، مستدلين على ذلك بقوله تعالى[12]

{ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث }فظاهر القرآن مثل وباطنه ممثول ، وجسم الإنسان مثل وباطنه ممثول مما دعاهم إلى الغلو والاتساع في تأويل آيات القرآن الكريم [13]

يظهر ذلك جلياً في قول ابن هانئ مادحاً المعز الفاطمي [14]

وحسبي مما كان أو هو كـــــائنٌ دليلانِ عـــــلمٌ بالاله وتـــجريبُ
ولم تخرق سجف الغيوبِ هواجس ولكنهُ من محارب الله مـــــحروبُ
وأعلم ان اللهَ مـــــــنجزَ وعدهِ فلا القول مأفوكٌ ولا الوعدُ مكذوبُ
وأنتَ معدٌّ وارثَ الأرضَ كلهـا فقد حُمَ مقدورٌ وقد خُطَّ مـــكتوبُ
ولله علمٌ ليس يحجب دونكـــــم ولكنهُ عن سائر الناس مـــــحجوبُ
وذكركَ تقديسٌ وأنتَ دلالـــــةٌ وحبكَ تصديقٌ وبغضكَ تـــكذيبُ
ألا أنما الدنيا رضـــاكَ لعاقـــــلٍ وألا فـــــأن العيش هَمٌّ وتعـــذيبُ
وأن طالَ عمرٌ في نعيمٍ وغبطـــةٍ فـــــــما هو الا من يميلك موهوبُ

وهكذا يستفيض في منح الصفات الإلهية للممدوح دون ايَّما تحرج إذ يقول [15]

مـــا شئت لا ما شاءت الأقدارُ فأحكم فأنتَ الواحدُ القهارُ
وكـــأنما أنت النبيُّ مـــــحمدٌ وكأنما أنصارك الأنصارُ
هذا الذي ترجى شفاعتهُ غداً وتخمد أن تراهُ النـــــارُ

فقد عبرت هذه الأبيات عن وجهة نظر ابن هانئ الأندلسي للخليفة الفاطمي وإن كان قد تجاوز حدً المعقول في وصفه وهي ما تمليه عليه عقيدتهُ الفاطمية التي يرى أصحابها أن الأئمة هم مبرؤون من المادة نوراً خالصاً وهم يمثلون باطن الوجود معتمدين في جُلِّ أفكارهم على تأويل الآيات القرآنية ، وبناءاً على ذلك صارت المشيئة مرتبطة بالأمام لأن حكم الأشياء بيده وهو الواحد القهار ومن ذلك قوله أيضاً [16]

والريحُ تبعثُ أنفاسها معطرةً مثل العبير بماء الوردِ يخـــتلقُ
كأنما هي أنفاسُ المُعزِّ مرت لا شبهة ٌ للندى فيها ولا غـــلطُ
تالله لو كانت الانواءُ تشبهـــهُ ما مرَّ بئسٌ على الدنيا ولا قنطُ

وانطلاقا من هذه النظرية نراهُ لا يسبغ على ممدوحه من صفات الله تعالى وحدها بل يجعل ذات الخليفة نفس ذات الله فهو وجه الإله إذ يقول [17]

وجهٌ بجوهرِ ماء العرشِ متصـــلٌ عرقٌ بمحضِ صريح المجدِ مرتبطٌ
يا أفضل الناس من عربٍ ومن عجمٍ وآل أحمد إن شبـــــوا وإن شمطـــوا

وهذه المعتقدات التي غالى ابن هانئ في إظهارها في شعره نابعة من تمسكه بأصول العقيدة الفاطمية وتشربه لمبادئها التي لا تتوانى في إضفاء الصفات الإلهية للخلفاء الفاطميين عبر الإغراق في التأويل للآيات القرآنية في مدح خلفائهم ، كقول ابن هانئ الأندلسي مادحاً يحيى أخا الخليفة المعز الفاطمي [18]

لـــكل قومٍ سيدٌ مـــاجـــدٌ ... لكنَّ يحيى سيدُ الخلــقِ
يصرحُ المـجدُ إذا ما بـــدا ... ويسجدُ الباطلُ للحـــقِّ
فأن يكن سيفَ إمـــام الهدى ... قهرَ إمامُ الفتقِ والرَّتقِ
كأنما في كـفهِ للـــــورى ... مفاتح الآجـالِ والارزاقِ
الحوض حوض الله في كفهِ ... يطفح من ملءٍ ومن فـهقِ

ويتصاعد غلوه ويتضح بصورة جلية في قصيدته التي قالها في مدح المعز الفاطمي حين استخدم لغة القرآن الكريم وأعار صفات اختصت بها الذات الإلهية دون أن تكون لغيره تعالى مستقياً معانيه من نظرية المثل والممثول التي يؤمن بها إذ يقول [19]

لكَ الدهرُ والايامُ تجري صـروفها ... بما شئتَ من حتفٍ ورزقٍ مقسم
وأنتَ بدأتَ الصفحة عن كلِ مذنبٍ ... وأنتَ سننتَ العفوَ عن كلِّ مجرم
رأيتكَ من ترزقهُ يُرزق من الورى ... دراكاً ومن تحـرم من الناسِ يحرم
ومـن لم تأيد ملكه يهورِ عـــــرشهُ ... ومـــن لـــم تثبت عزهُ يتـهدم
وأشـــهدُ إن الـــدين أنت مـــنارهُ ... وعـــروتهُ الوثقى التي لم تقصَّـم
ولله سيفٌ لـــــيسَ يكلـم حدُّهُ ... على أنه ان لم تقلَّـــدهُ يكهـــم
وللوحي برهانٌ ألذٌ خصومـــــهُ ... ولـــكنهُ إن لم تؤيدهُ يُخصَـــم
وللدهرِ سجلٌ من حياةٍ ومن ردى ... ولـــكنهُ من بطن كفّيكَ ينهـمي

فقد عمد على إضفاء الصفات الإلهية للممدوح مما يكفي لجعل الناس يحكمون بتكفيره فهو – المعز الفاطمي – يرزق ويصفح ويعفو ويؤيد من يشاء من البشر ، حتى إن الوحي إن لم يؤيده المعز يغلب بالخصومة .ومدائح ابن هانئ الأندلسي للمعز الفاطمي تنحى في معظمها منحاً باطنياً ولا تتقيد بالشكليات استلهمها من أصول عقيدته الفاطمية ووظفها توظيفاً ذا قيمٍ فنية جعلت من الممدوح يبلغ الصفات الإلهية عاكساً جوهر تلك العقيدة كقوله [20]

وعلمت من مكنون علم الله ما ... لم يؤتَ جبريلاً وميكائيـــلا
لله فيك سريرةٌ لو أعـــــلنت ... أحيا بذكركَ قاتلٌ مقـــــتولا
لو كان أعطى الخلقَ ما أوتيتـهُ ... لم يخلق التشبيهَ والتمثيـــلا
لولا حجابٌ دون علمكَ حـاجزٌ ... وجدوا الى علم الغيوبِ سبيلا
لو لم تكن سبب النجاة لأهـــلها ... لم يغنِ ايمان العبادِ فتيـــلا
لو لـــم تعرفنا بذات نفوسنـــا ... كانت لدينا عالماً مجهـــولا

فعلم المعز كما يقول ابن هانئ هو علم رباني لأن الأئمة هم ورثة علم رسول الله (ص) وبما إن علم الرسول (صلى الله عليه واله) رباني فعلمهم كذلك .

ثالثاً : نظرية الدور :وهو المبدأ الذي يفصل العقيدة الاسماعيلية عن الشريعة الإسلامية فصلا تاما ، إذ يزعمون إن الأئمة منذ آدم يتوالون في أدوار كل دور يتكون من سبعة أئمة والسابع هو الامام الناطق الممثل للعقل الكلي الفعال الذي انتقلت إليه قدرة الله وعنه تصدر النفوس الكلية التي يمثلها الأئمة الستة في الدور كما تصدر جميع المخلوقات عنه [21] .لقد كان لهذه النظرية حضور واسع في شعر ابن هانئ الأندلسي ولما كان المعز الفاطمي نهاية السبعة الثانية من ألائمة الفاطميين – حسب اعتقادهم – فأنه كان يتمثل فيه نور كل إمام سابع قبله من الأنبياء [22] فيتمثل فيه نور نوح (ع) [23]

لو كنتَ نوحاً منذراً في قومهِ ... ما زادهم بدعائهِ تضليـــلا

ويتمثل فيه قبس موسى (ع) وشعلته وهداه [24]

من شعلة القبس التي عرضت على ... موسى وقد حارت به الظلماءُ

ويتمثل فيه نور المسيح (ع) الذي كان يبرئ الاكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله تعالى [25]

أقسمت لولا أن دعيت خليفةً ... لدُعيتَ من بعد المسيح مسيحا

ويتمثل فيه نور الرسول الخاتم (ص) المشاهد في كل نور بملكوت السموات [26]

وكأنما أنت النبي محمدٌ ... وكأنما أنصاركَ الأنصارُ

ويبلغ به الغلو حتى لا يكتفي بحلول أرواح الأنبياء في المعز الفاطمي بل يجعل الله يحل فيه [27]

حلَّ برقادهِ المسيـــح حـــلَّ بها آدمٌ ونـوحُ
حلَّ بها اللهُ ذو المعالي وكلُّ شي ءٍ سواهُ ريحُ

ويعتقد الفاطميين أن النور الإلهي يتجلى في كل دور من الأدوار حتى يبلغ كماله في الإمام الناطق الحامل للرسالة النورانية [28] . وقد استوحى ابن هانئ الأندلسي هذه الفكرة موظفاً إياها في مدحه للمعز الفاطمي حتى جعله (روح هدى وجسم نور) [29]

وروحِ هدى في جسمِ نورٍ يمدُّهُ شعاعٌ من ألاعلى الذي لم يجسمِ
ومتصـــلٍ بين الاله وبينـــــه ممر من الاسباب لم يتصـــرَّمِ
إذا أنتَ لم تعلم حقيقةَ فضلـــــهِ فسائل به الوحي المنزَّلِ تعلـمِ
على كلِ خطٍ من أسرةِ وجـــهِهِ دليلٌ لعينِ الناظرِ المُتوسّـــمِ
فأقسمُ لو يأخذُ الناسُ وصـــفهُ عن الله لم يعقل ولم يتوهَّـــم
ألا أنما الأقدارُ طـــوعُ بنانـــهِ فحاربهُ تحرب أو تسالمهُ تسلم

فجسد المعز لم يعد مادة ترابية حتى صار مرتبطاً بالذات الإلهية .

وقد انتقل الشاعر نقلة واسعة إذ جعل المعز نوراً خالصاً وكأنما ليس فيه شيء من المادة ولا من الطبيعة البشرية ويصرح بذلك إذ يقول إن العيان والحس إنما يشهدان سناه وضياءه أما هو فكلذات الإلهية لا تحيط الظنون بكنهه وحقيقته [30]

تسعـــى بنـــور الله بين عبـاده لتضي ء برهاناً لهم وتلوحـــا
وجـــد العيان سناك تحقيقاً ولـــم تحط الظنون بكنههِ تصريحـا
صورتَ من ملكوتِ ربكَ صورةً وأمدها علماً فكنت الرُّ وحـــا
شهدت بمفخـــركَ السماوات العلى وتنزلَ القرآنُ فيكَ مديحـــا
تدعـــوهُ منتقماً عزيزاً قـــادراً غفارُ موبقةِ الذنوبِ صفوحا
أوتيتَ فضـــل خـــلافةٍ كـــنبوةٍ ونجيَّ الهامِ كوحيٍ يوحـــى

وقوله أيضا [31]

أبني النبوةِ هل نـــبادرُ غايـةً ونقولُ فيكم خـيرَ ما قد قيـلا
أن الخبيرَ بكم أجـدَّ بخلقكـم غيباً فجرد فيكـم التنزيـــلا
آتاكم القدسَ الذي لـــم يؤتـــهِ بشراً وأنفذَ فيكـم التفضيـــلا
إنـــا استلمنا ركنكم ودنوتـــمُ حتى استلمتمُ عرشهُ المحمولا
فوصلتُمُ ما بيننا وأمـدكـــم بُرهانهُ ســبباً به موصـــولا
ما عذركم أن لا تطيبَ فروعكم ولقد رسختم في السماءِ أصـولا
أعـــطتكم شُمُّ الانوفِ مقـادةً وركبتم ظهر الزمـــانِ ذلـولا

وبحسب هذه النظرية فأن الرسول (ص) هو عقل كامل وأن علياً (ع) وصيهِ نفساً كلياً ومما زعموه أن نفوس الأئمة الستة قبل العقل الناطق تعود بعد الوفاة الى عالم العقول وتصبح مثله عقولاً كلية مدبرة للكون [32] .

وقد تجسدت هذه الفكرة في قول ابن هانئ الأندلسي مادحاً المعز الفاطمي [33]

هذا ضميرُ النشأةِ الاولى التي بدأ الإله وغيبها المكنـــونُ
من أجل هذا قدر المقدورُ فـي أُ م الكتابِ وكوّنَ التكوينُ
وبذا تلقـــى آدمٌ مـن ربـــهِ عفواً وفاءَ ليونس اليقطيـنُ
حاشى لما حُمِّلت تحمل مثله ارضٌ ولكن السماءَ تعيـنُ
لو يلتقي الطوفانُ قبل وجوده لم ينجِ نوحاً فلكهُ المشحونُ
ولأنتَ أفضل ما تشير بجاههِ تحت المظلةِ بالسلامِ يمين ُ

هوامش المبحث الثاني

1- ينظر الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة د . أحمد هيكل : 321
2- ينظر تاريخ الأدب العربي – عصر الدول والامارات / مصر د. شوقي ضيف 244
3- ينظر ملامح الشعر الأندلسي د. عمر الدقاق : 88
4- أربع رسائل في الاسماعيلية عارف تامر : 55
5- ينظر المصدر نفسه
6- الديوان : 134

7-المصدر نفسه : 78
8-المصدر نفسه : 150
9-المصدر نفسه : 25
10- المصدر نفسه : 26
11- المصدر نفسه : 13
12- سورة يوسف آية 6
13- تاريخ الادب العربي – عصر الدول والامارات / مصر د. شوقي ضيف : 245
14- الديوان : 39
15- المصدر نفسه : 46
16- المصدر نفسه : 158
17- المصدر نفسه : 54
18- المصدر نفسه : 230
19- المصدر نفسه : 317
20- المصدر نفسه : 273
21- ينظر ابن هانئ الأندلسي عارف تامر : 59
22- ينظر المصدر نفسه : 59
23- الديوان : 273
24- المصدر نفسه : 5
25- المصدر نفسه : 17
26- المصدر نفسه : 146
27- المصدر نفسه : 71
28- ينظر تاريخ الادب العربي – عصر الدول والامارات / مصر د. شوقي ضيف : 246
29- الديوان : 315
30- المصدر نفسه : 302
31- المصدر نفسه : 313
32- ينظر تاريخ الادب العربي – عصر الدول والامارات / مصر د. شوقي ضيف : 246
33- الديوان : 357

الخاتمة :

بعد ان شارف البحث على نهايته كان من الضروري ان نعرض خلاصة له ونكشف عن اهم نتائجه :

1- ابن هانئ الأندلسي شاعر مكثر مجيد دلَّ شعره على انه كان ملماً بعلوم عدة كعلم اللغة والفقه والكلام مما دفع معظم النقاد ان يجعلوه في مقدمة شعراء المغرب ولقبوه بمتنبي الغرب .

2- كان يعمد في شعره الى غريب اللغة وقعقعة الفاظها ويتكلف المبالغة ويغلو حتى ان من نقد شعره عاب عليه اهتمامه بالألفاظ دون الأفكار واتهموه بمحاولة إبراز قدرته اللغوية في النظم .

3- إن الثقافة الإسلامية ومصدرها الرئيس القرآن الكريم قد ادى دورا مهما في حياة الشاعر وظهر تأثيرها واضحا في شعره فانطبعت آثاره على معظم أغراضه الفنية وتسربت ألفاظه وتعابيره الى خلايا شعره .

4- تعامل ابن هانئ الأندلسي مع النصوص القرآنية تعاملا ذكيا ظهر على مستويات ثـــلاث (تصريحا او تلميحا او إشارة) دالة على حفظه للقرآن الكريم وتشربه لمعانيه وتمرس فكره بهديه وتأثره بنصوصه وأفكاره تأثرا قويا .

5- إن من بواعث حضور المعالم القرآنية وأثرها الكبير في شعره لا تتمثل بالغاية الدينية فحسب بل قد يلجئ اليها لاعتبارات ذاتية وكوامن نفسية تتمثل في سببين أساسين احدهما إضفاء القداسة لعقيدته الاسماعيلية وتكريس شرعيتها في أذهان الناس والثاني المنفعة في القربى من الممدوح – الخليفة – وانتهاز المواقف التي تقربه اليه .

6- معظم قصائده مملوءة بالألفاظ والمدارك الفاطمية والمبالغة بالمديح والرثاء ومما لا شك فيه انه كان يأتي بهذه المبالغات ارضاءً للممدوحين واستكثاراً لعطاياهم وجوائزهم .

7- اشتمل شعره على النزعة السياسية والعقيدة المذهبية متعانقتان في اكثره حتى غدا شعره مرآة للعقيدة الاسماعيلية وتعاليمها وعدَّ ديوانه سجلاً لمصطلحاتهم وآرائهم .

8- كان ابن هانئ الأندلسي شاعرا عقائديا يتفجر شعره بعاطفة فوارة وايمان قوي لا يعرف الاعتدال ولا الحدود وبخاصة في مدائحه للإمام المعز الفاطمي فهو يضفي على ممدوحه من الصفات ما يكاد يخرجه عن صفات البشر ويجعله أقرب الى الإلوهية

المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم
2- ابن هانئ الأندلسي عارف تامر ، بيروت 1961
3- اثر القرآن الكريم في الشعر الأندلسي خلال عصري دول الطوائف ودولة المرابطين 422 هـ - 542 هـ هادي طالب محسن (رسالة ماجستير) كلية التربية / جامعة بابل 2003 .
4- الأدب الأندلسي التطور والتجديد د. محمد عبد المنعم الخفاجي ، دار الجيل بيروت د.ت

5- الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة د. أحمد هيكل ، دار المعارف القاهرة ط 13 ، 2002
6- اربع رسائل في الاسماعيلية عارف تامر ، بيروت 1963
7- تاريخ الأدب العربي الى آخر عصر ملوك الطوائف د. عمر فروخ ، دار العلم للملايين ط 2 ، 1984
8- تاريخ الأدب العربي – عصر الدول والإمارات / مصر د. شوقي ضيف ، دار المعارف مصر 1979
9- ديوان ابن هانئ الأندلسي دار صادر بيروت د.ت
10- زهرة الآداب وثمر الألباب القيرواني ابي اسحاق ابراهيم بن علي (ت 453 هـ) تح محمد محي الدين عبد الحميد ، ط 4 بيروت 1972
11- شعراء الأندلسي د. محمد العريس ، دار اليوسف بيروت / لبنان ط1 ، 2005 م
12- معجم الأدباء الحموي ياقوت بن عبد الله طبعة أخيرة منقحة طبع دار المأمون د.ت
13- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي ، القاهرة 1953 م
14- ملامح الشعر الأندلسي د. عمر الدقاق منشورات دار الشروق ، بيروت 1974 م
15- موسوعة شعراء الأندلس عبد الحكيم الوائلي ، عمان دار اسامة ط 3 ، 2009 م
16- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب المقري ابو العباس احمد بن محمد تح د. احسان عباس دار صادر بيروت 1968 م
17- وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ابن خلكان احمد بن محمد بن ابي بكر تح د . احسان عباس دار الثقافة ، بيروت 1968 م